اغنيات وانناشيد ، من عناد وسخرية ، من حزن وحلم ، من اخطاء وهفوات ، من فرح وموسيقى ، لقادرة على ان تعكس معاناة ادفا، واحيانا أعمق، من همومنا الكبيرة . فقصاصات الورق الملونة ، المبتعة بالزيت ، تبعث فينا دهشة الاكتشاف وروعته وألمه . تكشف امامنا رؤية الاشياء وأحيانا تصححها. السنا ندهش لكلمة عابرة ينطق بها لسان طفل ، تختزل الف معنى ومعنى . فاذن هذه الرسوم أشبه بما تكون بالكلمات اللثغاء العبقرية كثفت الكثير مما نود ان نقوله وبحماسة شديدة . بعيدا — ولو لقليل من الزمن — عن اشكال القهر والتكبيت التي نكاد ان تكون زادهم اليومي . وصاغت لنا هذه الملحمة الثرية الملونة .

واخيرا ، فان هذه الدراسة محاولة لجعل أصوات الطفولة النازحة قادرة على ان تأخذ مداها ، وان تعطى حقها ، ومحاولة لتمرير اوراق الطفولة ، بألوانها وخطوطها ، من فوق الكلمات الكابتة والاحكام والقيود والنظرات الميتة التي تحاول اسكات صوتها المعافى والصحيح وقتل ابداعاتها . فان نجحت في ذلك ، فان ذلك يعني ان اطفال البتعة ، عندما حاولوا ان يقولوا (حقائقهم الصغيرة) دون ان تموت في افواههم او على رؤوس انامليهم ، فقد كسبوا شوطا في نضالهم من اجل السيطرة على تشويهات الحياة المائلة وبشاعتها .

(1)

يقول ويلهلم فيولا في معرض حديثه عن بداية الاهتمام برسوم الاطفال « ... ان اكتشاف فن الاطفال ، هو نتيجة لاكتشاف الطفل كانسان ، له شخصيته الخاصة وقوانينه الخاصة ... »(٥). وثمة اشارات تدلل على خلفية هذا « الاكتشاف »، منذ منتصف القرن الماضي ، كان ممكنا ان يردد هربرت سبنسر في كتابه عن التربية (١٨٥٤ — ١٨٥٩) : « ان الاعتراف السائد حول الرسم ، كأداة او عنصر تربوي ، لهو دلالة من بين دلالات كثيرة عن النظرة العقلية حول الثقافة الفكرية التي بدأت تنتشر الان » . « ... ما هو الشيء الذي يحاول الطفل ان يصوره اولا — يستطرد سبنسر قائلا — الاشياء الكبيرة ، الاشياء ذات الالوان الجذابة ، الاشياء التي تحوم حولها دلالات مثيرة ... » . « أي طرق التقديم ، التشخيص، تعطي بهجة أكثر! التلوين». «ليس السؤال فيما اذا كان الطفل ينتج رسوما جيدة، انما السؤال يكمن في هل يطور الطفل قواه أ.. » . « في سني الطفولة الاولى ليس بالامكان اعطاء دروس رسم رسمية ، هل ، اذن ، علينا ان نكبت ، او نهمل هذه المحاولات الطفولية لتثقيف النفس ، ام هل نشجع ونوجه هذه المحاولات ، كتمارين طبيعية للادراك وقوة التوجيه ؟ » « يجب ان يحصل التالي : عندما يصل الطفل الى سن دروس الرسم ، سوف تظهر قدرة كانت غير موجودة . يستنتج من هذا اننا ضمنيا نشجب التمرين من نماذج . واكثر من ذلك نشجب الانضباطية الرسمية في تعليم رسم الخطوط المستقيمة ، والخطوط المنحنية وكذلك المركبة ، هذه القواعد التي يبدأ بها بعض الاساتذة...»(٦). ولا أظن ان ثمة حاجة للتذكير ، بأن هذه القواعد في تعليم الرسم للاطفال ، والتي يشجبها هربرت سبنسر منذ اكثر من قرن ، ما تزال متبعة في مدارسنا . غير ان ملاحظات سبنسر هذه ، والتي كانت متقدمة قياسا لعصره ، تلتها ، بعد نحو ثلاثة عقود ، محاضرة لابينزر كوك بعنوان « طرق تعليمنا الفن وطبيعة الطفل » كانت قد القيت امام الجمعية التربوية ثم نشرت في مجلة التربية عام ١٨٨٥ — ١٨٨٦(٧) وقد عرفت هذه المحاضرة ، بين غالبية الدارسين لفن الاطفال ، بمثابة البداية الرسمية للاهتمام برسوم الاطفال وتحليلها ، اذ ضمنها ملاحظاته واستنتاجاته حول مراحل نمو الاطفال من خلال رسومهم ، كما دعا الى فهم تربوي جديد في تعليم الاطفال يأخذ بعين الاعتبار مراحل نمو الطفل العقلية والذوقية(٨).

وبعد فترة وجيزة (١٨٨٧) صدر كتابان ، وعلى وجه الدقة تقرير وكتاب ، الاول وضعه كورادو ريتشي حول رسوم الاطفال الايطاليين ، وثمة اعتقاد ان اصطلاح « فن الاطفال » قد استعمل لاول مرة في هذا التقرير(٩)، كما يظن ان مجموعة رسوم الاطفال التي جمعها ريتشي قد تكون اول مجموعة نشر عنها بيان . اما الكتاب الثاني الذي صدر بنفس السنة ، فهو للالماني الفرد ليختفارك وتضمن « ان الطفل في تصويره للاشياء يبسطها ، حسب قوانين صالحة لكل الازمان وكل الشعوب ، ونحن تعرفنا على العلاقة ما بين محاولات الطفل الاولى ومحاولات الانسان البدائي »(١٠). و في عام ١٨٩٥ ردد جيمس سللي في كتابه « دراسات في الطفولة » « فن الاطفال ، شيء قائم بذاته » « الفنان الصغير هو رمزي اكثر منه طبيعي »(١١). ومنذ ١٨٩٧ وعلى